٤

فى العصر العباسى الثانى

أول ما نقف عنده من موضوعات الشعر فى هذا العصر الذى يشغل نحو مائة عام (٢٣٢ – ٣٣٤ ﻫ .) موضوع المديح ، إذ مضى الشعراء فيه يرسمون للخلفاء والوزراء والولاة المثل الأعلى للحاكم كما يتراءى فى أذهان الشعب ، فالمتوكل وغير المتوكل من الخلفاء والفتح بن خاقان وغير الفتح من الوزراء وعبيد الله بن عبد الله ابن طاهر حاكم بغداد وغير عبيد الله من الولاة يضعه الشعراء فى الإطار الذى تريده الرعية من التقوى ومن نشر الأمن والعدل فى ربوع البلاد ، على شاكلة قول البحترى فى المتوكل ، وكان اسمه جعفرا :

خلق اللهُ جعفــراً قيِّمَ الدُّنـ ... يَا سَدَاداً وقيِّمَ الدين رُشْدَا

أظهر العدلَ فاستنارتْ به الأَرْ ... ضُ وعَمَّ البلادَ غَوْرًا ونَجْدَا

وهذا المطلب الشعبى مطلب العدل كان يكرَّر دائمًا فى مديح الوزراء والولاة ويكرر معه إحكامهم التدبير لشئون الرعية وسياستها سياسة حميدة . وكل ذلك كان مشاركة للشعراء فى تصور سياسة الدولة وفى الدفاع عنها وبيان أنها تحكم الرعية حكماً رشيداً ، وكان شعراء المديح لذلك أشبه ما يكونون بوسائل الإعلام الحديثة للدولة ؛ فهم يصورون للعامة سياستها ، والدولة تستغلهم للدعوة السياسية لها . وكان حزب الشيعة يدعو للعلويين ضد العباسيين دعوة قوية ، مؤكداً حقوقهم فى وراثة الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم من جهة أبناء على بن أبى طالب ابن عم الرسول عليه السلام وبطل الحروب الإسلامية الأولى ، وقد أوصى له الرسول من بعده – فى رأيهم – بالخلافة ، ولأنهم من جهة ثانية أبناء السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم ، وهم أولى القرشيين بتحقيق المساواة التى يطمح إليها الناس وهم أقدرهم على أن يسوسوهم سياسة تملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جوراً . وينتصر للعباسيين كثيرون ، فى مقدمتهم البحترى شاعرهم الرسمى ، وكان كثيراً ما يصوِّر حقهم الشرعى فى الخلافة بمثل قوله :

شرفًا بنى العباس إن أباكمُ عَمُّ النبىِّ وعِيصُهُ المتفرِّعُ
وأرى الخلافةَ وهْى أعظمُ رتبةٍ حقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزعُ
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم واللهُ يُعْطى مَنْ يشاءُ ويمنَعُ

فالعباس جد العباسيين عم الرسول عليه السلام من العيص منبت الشجر الضخم، أو بعبارة أخرى من الأصول فهو عم الرسول ، بينما على من الفروع ، ويصرح بحكم الميراث فى الشريعة الإسلامية، إذ يحجب العم ابن أخيه فى الإرث . وكان المتوكل يكاد يطير فرحاً حين يسمع مثل هذه الدعاية السياسية من البحترى . وقد ملأ الخلفاء حجوره بالأموال، حتى قالوا إنه كان يمشى فى موكب من عبيده وأنه كان يملك ضياعاً كثيرة . وبلسان هذا الحزب العباسى كان مروان بن أبى الجَنوب ينشد مثل قوله :

مُلْكُ الخليفةِ جعفرٍ للدين والدنيا سلامَهْ
لكمُ تُراثُ محمَّدٍ وبِعَدْلكم تُنْفى الظُّلامَهْ
يرجو التراثَ بنو البنا تِ وما لهم فيها قُلامَهْ
والصِّهْرُ ليس بوارثٍ والبنتُ لا تَرِثُ الإمامَهْ
أخذ الوراثةَ أهلُها فعلامَ لَوْمُكُمُ علامه

ومروان يردُّ على العلويين ما يزعمونه من وراثة الخلافة عن أمهم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على أبناء البنت فى الوراثة حسب حكم الشريعة الإسلامية ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا الإمامة ، فكيف يحق لأبناء السيدة فاطمة وأحفادها أن يدَّعوا وراثتها عنها . ويقول الرواة إن المتوكل فرح بالقصيدة فرحاً ما بعده فرح، مما جعله يقلد مروان اليمامة والبحرين ويخلع عليه أربع خلع ، وينثر عليه ثلاثة آلاف دينار ، مكافأة على هذا الشعر الذى سيتغنى فيه المغنون ، وسيذاع فى الشعب بكل وسيلة . وكان العلويون يلقون هذا الشعر المنتصر للعباسيين بأشعار كثيرة يقولها أصحابها انتصاراً لهم ولحزبهم ، وشاع بين شعرائهم منذ العصر العباسى الأول الحديث عن فضائل الإمام على . وللمفجَّع شاعر البصرة فى العصر قصيدة طويلة يمدحه فيها سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مُسْنَدٍ إلى أبى هريرة جاء فيه أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال فى جمع من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ونوح فى همّه وإبراهيم فى خلقه وموسى فى مناجاته وعيسى فى سنّه ومحمد فى هَدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل فتطاول الناس، فإذا هو على بن أبى طالب». وقد استوحى المفجّع هذا الأثر فى نظم قصيدته ، مصوراً فيها مناقب الإمام ، وفيها يقول :

أيهـا اللائمى لحبّى عَلِيًّـا ... قُمْ ذميماً إلى الجحيم خَزِيًّا
أشبه الأنبياء كهلا وزَوْلاً ... وقَطيماً وراضعاً وغَذِيًّا
كان فى علمه كآدم إذ عُلِّ ... مَ شَرْحَ الأسماء والمكْنِيًّا
وكنوحٍ نجّى من الهُلْك من سَـ ... يَّر فى الفلك إذ علا الجُودِيًّا
وجفا فى رضا الإلٰهِ أباه ... واجتواه وعَدَّه أجنبيًّا
كاعتزال الخليل آزرَ فى اللـ ... ـه وهجرانه أباه مَلِيًّا
ولو أنّ الوصىّ حاول مَسَّ النَّـ ... ـجْم بالكف لم يجدهُ قصِيًّا

والزول : الفتى . والجودى : جبل بشمالى العراق . وواضح أن المفجع يشير فى البيت الثالث إلى قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلّها) ويريد أن يسبغ عليه علماً لَدُنِّيًّا كعلم آدم على نحو ما يعتقد الشيعة فى أئمتهم ، ويقرنه إلى نوح وحمله بسفينته فى قصة الطوفان — كما جاء فى القرآن الكريم — (من كل زوجين اثنين) ويشير إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من اعتزال إبراهيم لأبيه آزر فى عبادته للأصنام . ويذكر فى نهاية الأبيات عقيدة الوصية المعروفة عند الشيعة وأن الرسول عليه السلام أوصى حين نزل بغدير خُمّ بين مكة والمدينة لعلىٍّ بالخلافة من بعده . وكانت هذه القصيدة وما يماثلها من مدائح على بن أبى طالب تدور على ألسنة الشيعة فى البصرة وغير البصرة .

ومعروف ما حدث من تطور فى أداة الحكم لهذا العصر ، فقد تحولت مقاليده من أيدى الفرس إلى أيدى الترك ، ولم يكونوا أصحاب حضارة ، بل كانوا بدواً غِلاظاً من أواسط آسيا استكثر منهم المعتصم وخلفاؤه ، وأصبحوا مادة الجيش الحربية وقواده ، لهم السلطان كله والصولجان ، ونصبح بإزاء عصر جديد هو العصر العباسى الثانى ، والترك يولّون الخلفاء ويعزلونهم ويسفكون دماءهم غير مراعين فيهم عَهْداً

ولاذمة ، وأول خليفة استباحوا دمه المتوكل لسنة ٢٤٧ . وكان البحترى — كما أسلفنا — يُعَدُّ شاعره الرسمىّ وشاعر الخلفاء من بعده ، وأثَّر الحادث فى نفسه تأثيراً عميقاً ، كما أثر فى نفوس كثيرين من الرعية ، وكان لا يزال للفرس حزب يأسى لما آلت إليه أمور الخلافة ، ويأسى معه كثير من أبناء الشعب . وزار البحترى إيوان كسرى الذى بقى من « المدائن عاصمة الفرس » وكانت قد بقيت منه أطلال ، لم يكد يراها البحترى حتى بهره الفن الفارسى ، وسرعان ما ذكر نهضة الفرس بالعصر العباسى الأول وتشييدهم لحضارته ومدنيته ، مما جعله ينوه بمجدهم الحضارى التالد ، حتى ليكاد يرفعهم على العرب ، لوعةً مما آلت إليه شئون الحكم والحضارة فى عهد الترك ، على نحو ما يلقانا فى قصيدته السينية المشهورة :

صُنْتُ نَفْسى عما يدنِّس نفسى وترفَّعتُ عن جَدَا كلِّ جِبْسِ

والجدا : العطاء . والجبس : اللئيم . وقد مضى يتحدث عن مدنية الفرس ورفاهة عيشهم وما كانوا فيه من نعيم وعن اتساع دولتهم التى كانت تمتد من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية . وكانت قد نُقشت على أطلال الإيوان رسوم ونقوش لمعركة عنيفة بين الفرس بقيادة كسرى والبيزنطيين ، حدثت بأنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، فنقل مشهدها نقلا بارعاً إلى سينيته ، مصوراً كيف استحال قصر الإيوان وما كان يزخر به من أدوات الترف وأسباب النعيم إلى قبر ضخم للحضارة الفارسية ، وبعبارة أخرى كيف استحالت الأعراس التى كانت قائمة فيه — كما يقول — إلى مآتم . وهذا المديح للفرس وحضارتهم إنما هو مديح سياسى ، ينتصر فيه البحترى للفرس الذين أدال منهم الترك ولحزبهم الذى كان لا يزال له أنصار كثيرون فى بغداد وغير بغداد ، فهو الظاهر مديح وفى الواقع شعر سياسى يواجه مشكلة قائمة هى مشكلة استيلاء الترك على قصر الخلافة وعلى الحكم والسلطان كله ، والبحترى يبثُّ فى تضاعيف ذلك همومه وهموم أمثاله من الرعية لمقتل الخليفة بأيدى جنده وحماته من أعوانه .

وكان الشعب يطرب طرباً لا حدَّ له بانتصارات قواد جيوشه العظام ، وكان الشعراء حينئذ أشبه بالمراسلين الحربيين لعصرنا ، فهم ما يزالون يوردون على مسامع الشعب أخبار معاركهم وما يذيقون الأعداء من بأس شديد ، مصورين ذلك فى مدائح

طنانة لهم ، يجسّدون فيها المعارك ، حتى لتغدو مصدراً مهمًّا من مصادر تاريخنا الحربى ، بل إنها لتتفوق على المصادر التاريخية الخالصة ، لأن هذه تحكى التاريخ الماضى على ألسنة رواته ، أما مدائح القواد فتحكى التاريخ الحاضر ، لأن الشاعر يصور فيها ما رأى وشاهد ببصره . وكثيراً ما تترك الكتب التاريخية بعض التفاصيل وتتلافاها قصائد المديح الحربى إن صح هذا التعبير ، بل لقد تترك تلك الكتب معارك عظيمة ، أبلى فيها قوادالعرب وجيوشهم بلاء عظيما ، وخير مثل لذلك معركة بحرية حدثت فى أول خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة بين الأسطول العربى بقيادة أحمد بن دينار وبين الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ، فـإن كتب التاريخ لم تذكر عنها أى شىء ، بينما صوّرها البحترى تصويراً رائعًا فى قصيدة مدح بها القائد العربى العظيم . واصفًا كيف اتجه بأسطوله نحو بيزنطة باحثًا عن أسطول البيزنطيين ، وما زال يبحث عنه حتى التقى به ، وأدار معركة دمر فيها الأسطول البيزنطى تدميراً نهائيًّا . ومن عجب أن الكتب التاريخية البيزنطية سجلت هذه المعركة باكية مولولة ، بينما لم يسجلها المؤرخون عندنا ، واولا أن البحترى سجلها فى مدحته لابن دينار ما عرفناها ، وقد بلغ الذروة فى نقل مشهد المعركة ، ومن قوله فيها يصور زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله جنوده مصطفين على مراكبهم ، يوجهون قذائفهم النارية إلى مراكب الأسطول البيزنطى ، حتى غرقت فى اليمّ وغرق جنودها إلى غير مآب :

غدوتَ على « الميمون » صُبْحًا وإنما ... غدا المرْكَبُ الميمونُ تحت المظفرِ

وحولك ركّابون للهـول عاقروا ... كئوسَ الرَّدى من دارعين وحُسَّر

صدمتَ بهم صُهْبَ العَثانين دونهم ... ضِرابٌ كإيقاد اللَّظى المتَسَعِّرِ

يسوقون أسطولا كأن سَفينه ... سحائبُ صيفٍ من جَهامٍ ومُمْطِرِ

تقاربُ من زَحْفيهمُ فكأنما ... تؤلَّف من أعنـاق وحْشٍ منفَّرِ

فمارِمْتَ حتى أجْلتِ الحربُ عن طُلًى ... مقطَّعةٍ فيهم وهـام مطيَّرِ

وواضح أنه يقول إن جنود البحر كانوا مدرَّبين على القتال فيه تدريبًا جيداً :

الدارعين منهم وغير الدارعين . وسرعان ماصدم بهم الروم صُهْب العثانين ، أو بعبارة أخرى شُقْر اللحى ، مصوبين عليهم قذائفهم المحرقة . وما كان أشبه سفن الأعداء بسحب الصيف الممطرة وغير الممطرة ، سحب سرعان ما تبددت ، إذ تقارب الزحفان والتحما وكأنما تدانت وحوش منفَّرة أو نافرة . وما رام ابن دينار عن المعركة أو زال عنها حتى سحق الأسطول البيزنطى سحقاً وبيلا . وطُلَى القوم أو أعناقهم تتقطع ورءوسهم تتطاير كأن لم يكونوا شيئًا مذكوراً . وهذه الأبيات إنما هى قطعة صغيرة فى وصف تلك المعركة الباسله من رائية البحترى ، التى تُعد بحق وثيقة تاريخية مهمة .

وتلقانا قصيدة فى نحو أربعمائة بيت لابن المعتز ، فى سيرة الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ .) صديقه الحميم بطل معارك الزنج الذى قضى عليهم مع أبيه الموفق قضاء مبرمًا . وكان قد رد إلى الخلافة اعتبارها ، وأخمد جميع الثورات وعاشت الرعية فى أمن ورفاهيه . والسيرة مديح عاطر للمعتضد ، وبيان لاستقرار الشئون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما ساد البلاد من العدل فى زمنه ، ونرى ابن المعتز يقارن فيها مقارنات واسعة بين عهده وبين اضطراب الأمور قبله واختلال الحكم وعبث الترك بالخلفاء يخلعونهم ويسفكون دماءهم وينهبون خزائن الدولة :

كذاك حتى أفقـــروا الخلافه وعوَّدوها الرُّعْبَ والمخـــافه

ويذكر ما أنزل المعتضد بالوزير أبى الصقر إسماعيل بن بلبل من نكال لطغيانه وظلمه للرعية وإفكه وبهتانه ، ويصور كيف كان جنوده يذيقون الرعية مظالم ثقيلة ، وكيف كانوا يبتزون أموال التجار أصحاب التجارات العريضة ، حين يتعاملون معهم حتى ليدَّعون عليهم أن للسلطان عندهم ودائع ينبغى أن يؤدّوها كذبًا عليهم وافتراء ، وإذا حاول تاجر مراجعتهم أنزلوا به عقابًا أليماً :

حتى إذا مَلَّ الحياة وضَجِرْ وقال : ليت المال جَمْعا فى سَقَرْ

أَعطاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقــا يستعمل المَشْىَ ويمشى العَنَقا

وسقر : جهنم . والعنق : مشى سريع . وكأنه يخاف أن يردوه إلى التعذيب والتنكيل تنكيلاً أليماً ، فهو يطير مسرعاً . وكان مَنْ يرث عن أبيه مالاً كثيراً ، يحاولون بكل وسيلة الاستيلاء على ميراثه ، إذ يطلبون منه إثبات نسبه من أبيه ، وما يزالون يلكمونه ويصفعونه ويلقون به فى غياهب السجون حتى يعطيهم مالا وفيرا :

وأسرفوا فى لَكْمِهِ ودَفْعِهِ ... وانطلقتْ أكفُّهم فى صَفْعِهِ
ولم يزل فى أضيق الحُبوسِ ... حتى رمى إليهمُ بالكيسِ

وكان عمال الخراج والضرائب يصبون على رءوس الناس أهوالا من العذاب لاستخراج الأموال التى يفرضونها عليهم ، فى غير رحمة ولا شفقة ، بل فى قسوة ما بعدها قسوة ، فهم يضعون فى أيديهم وأرجلهم السلاسل والأغلال ، وهم يزجّون بهم فى السجون ، وما يزالون يضربونهم ويركلونهم ويعذبونهم صنوفاً من العذاب :

فكم وكم من رجلٍ نبيلِ ... ذى هَيْبةٍ ومَرْكَبٍ جليلِ
رأيته يُحْمَلُ بالأعوانِ ... إلى الحبوسِ وإلى الديوان
وجعلوا فى يَدِه حِبالا ... من قِنَّبٍ يقطِّع الأوصالا
وعلَّقوه فى عُرَى الجِدارِ ... كأنه بَرَّادَةٌ فى الدَّارِ
وصفَّقوا قَفَاهُ صَفْقَ الطَّبْلِ ... نَصْبًا بِعَيْنِ شامتٍ وخِلِّ

ويذكر ابن المعتز أنهم كانوا لا يزالون يقلّبون غريمهم فى هذه الأهوال ، حتى يتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار ، لعل منهم من يقرضه بعض ماله أو من يشترى منه بعض عقاره ، ويأتيه المرابون ، فيقرضونه بالاتفاق مع عمال الخراج والضرائب واحداً بعشرة ، ويكتبون عليه صَكًّا بأنه باع ضيعته أو عقاره ، وبذلك يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق . وكأننا أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق ، وغابت قوانين الشريعة الإسلامية كلها من الحكم . وابن المعتز بذلك يعطينا وثائق خطيرة لحياة الشعب فى بغداد قبل حكم المعتضد ، ومعروف أن

حياة الناس بعده لم تلبث أن عادت إلى هذه الصور البشعة من الحكم الفاسد الجائر. والقصيدة حقا سيرة ومديح، ولكنها حملت وثائق شعبية خطيرة تصور حكم العباسيين أو على الأقل كثرتهم فى عهد الترك البغيض.

وعلى نحو ما كان المديح يصور الحياة الواقعة ويشارك فى السياسة العامة كان الهجاء مثله لا يبعد عن السياسة ولا عن حياة الناس فى بغداد وغير بغداد، ولذلك اتصل كثير منه بالخلفاء والوزراء، لما صوره لنا ابن المعتز من المظالم التى كانت ترهق الناس ولا تسوّى بينهم فى مواجهة الحياة واحتمال خطوبها. وكان المتوكل خاصة يضطهد الشيعة، وبلغ من اضطهاده لهم أن أمر بهدم قبر الحسين بكَرْبَلاء وأن يمتنع الناس من زيارته، مما جعل على بن بسام يتعرض له بقوله:

تالله إن كانتْ أميَّةُ قد أتتْ ... قتْلَ ابن بنتِ نبيِّها مظلوما
فلقد أتاه بنـــو أبيه بمثلـــهِ ... هـــذا لعمرك قَبْـــرُه مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... فى قَتْلـــه فتتبَّعوه رميمـــا

وهو هجاء سياسى واضح. وكان ابن بسام أحد أصوات الشعب القوية فى العصر، فهو مايني يتعرض للخلفاء والوزراء بالهجاء اللاذع، وممن كان يكثر من هجائهم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الذى سجل له ابن المعتز كما أسلفنا صفحة سوداء فى قصيدته «سيرة المعتضد» وفيه يقول:

سجـــدنا للقرود رجـــاء دُنْيا ... حَوَتْها دوننـــا أيدى القـــرودِ
فمـــا نالتْ أناملُنـــا لشيءٍ ... عملناه ســـوى ذلِّ الســـجود

وكان شيعيًّا أو أحد ألسنة الشيعة، فلم يسلم المعتضد من هجائه مع ما اشتهر به من شدة البطش والتنكيل بخصومه، وبالمثل لم يكد يسلم وزير من لسانه، على نحو ما يلقانا فى هجائه للوزير أبى القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب، من ذلك أنه انتهز فرصة وفاة ابنه الحسن. فهجا ابنه القاسم الذى أصبح فيما بعد وزيراً للمعتضد، مُتَرحِّماً على الحسن مادحاً له، وهاجياً للقاسم ذامًّا، حتى يغيظه ويغيظ أباه قائلا:

قــل لأبى القاسم المــرجّى ... قابلك الدّهْــرُ بالعجائبْ
مات لك ابنٌ وكان زَيْنًــا ... وعاش ذو الشَّيْن والمعــايب
حياةُ هــذا كموت هــذا ... فلست تخلــو من المصائبْ

ودار البيت الأخير على ألسنة الصغار والكبار فى بغداد ، وسمعه المعتضد ، فنصح وزيره القاسم أن يقطع لسانه عنه بتوظيفه فى عمل والبِرّ به ، حتى لا يذكره بشر ، فولاّه بريد إحدى البلدان . وتوفى المعتضد وخلفه ابنه المكتفى ، واتخذ وزيراً له العباس بن الحسن ، فتولّى مغاضباً له ، ونظم فيه أشعاراً كثيرة يهجوه فيها بظلمه وعسفه من مثل قوله :

تحمَّــل أوزارَ البريَّة كلِّها ... وزيرٌ بظلمِ العالمين يجاهــرُ

وكان العباس يتأنق تأنقا شديداً فى ملابسه ، فأتاه من هذا الجانب ، عائباً عليه عيبًا شديداً تزينه ، حتى ليعده جارية حمقاء ما تزال تُعْنَى بزينتها وهيئتها ، يقول :

وزارةُ العبــاس من نَحْسِــها ... تستقلع الــدولةَ من أُسِّــها
شبَّهته لمـــا بدا مُقْبِــلاً ... فى حُلَــلٍ يُخْجِلُ من لبســها
جاريةً حمقـــاء قد فَصَّــلتْ ... ثيــابَ مولاها على نفْسِــها

ويدخل بعد المكتفى عصر المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) وفيه فسد الحكم على أيدى وزرائه فساداً لاحدّ له ، ونرى ابن بسام ينزل بسياط شعره على ظهورهم وخاصة على ظهر الخاقانى الذى اشتهر بأخذه للرشوة من ولاته ، وبلغ من سوء سيرته أنه كان يبيع الولايات مراراً غير مراع ذمة ولا عهداً للرعية ، ويقال إنه ولّى على الكوفة فى يوم واحد من صباحه إلى مسائه تسعة عشر واليًا ، كل منهم دفع له رشوة حسب مقدرته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

وزيرٌ لا يملُّ من الرَّقاعَهْ ... يولِّى ثمَّ يعزلُ بعد ساعه

إذا أَهلُ الرُّشـــا صاروا إليه فأَحْظَى القومِ أوفرُهم بِضاعه

وبذلك انتكست أداة الحكم حينئذ انتكاساً شديداً ، وهو انتكاس كان الشعب يئن منه أنيناً متصلا ، لأنه هو الذى كان يقع عليه غرمه وتقع جناياته وظلمه ، وكان ما يزال شعراؤه يصيحون فى وجوه أمثال الخاقانى ، ولكن كأنما غاض الحياء من وجوههم ، فأصبحوا لصوصاً يسرقون وينهبون دون رادع أوزاجر .

وكان بجانب هذا الهجاء السياسى هجاء اجتماعى كثير ، أكثر فيه الشعراء من ذم العيوب الاجتماعية ، وأيضاً العيوب الفردية . وكان بعض هذه العيوب يسوء النفوس ويحزنها ، وبعضها يملؤها سخرية ، وقد يدفع إلى الضحك ، وأكبر أصحاب هذا النوع من الهجاء الفردى والاجتماعى ابن الرومى ، إذ كان يعرف كيف يسخر من مهجويه ، وكيف يشوِّه صورهم تشويها يمسخهم ، ويُضْحك عليهم أهل بغداد ضحكاً عريضاً ، على شاكلة قوله فى وصف بخيل :

يقتِّر عيسى على نفسهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيرِه تنفَّس من مَنْخِرٍ واحـــدِ

ففتحة أنف واحدة تسدُّ حاجته من التنفس ، ولو رآها حقّاً تغنيه عن أختها ما انتفع بها إبقاء عليها ، حرصا ذميماً يتصف به وشُحّاً وتقتيراً . وكان لا يبارَى فى التقاط العيوب الصوتية والجسدية وتكبيرها على نحو ما نرى فى عصرنا عند أصحاب الصور الكاريكاتورية إذ يستغلون دقائق العيوب الجسدية فى الوجوه ، ويكبِّرونها ، فتستحيل مضحكة ، كما تستحيل معبرة عن المعالم الخلقية لصاحبها تعبيراً قويّاً ، من ذلك أنه استمع إلى مغن قبيح الصوت ، وكأنما أراد أن يخرسه إلى الأبد ، فصوَّره فى صورة بغل لطحّان مابنى يحرِّك فكَّيه فى أكل غذائه من الفول وغير الفول ، يقول :

وتحسب العَيْن فكَّيـــه إذا اختلفا عند التنغم فَكَّىْ بَغْلِ طَحَّانِ

وكان يحسُّ إيذاءاً شديداً إزاء اللحى المسترسلة حين تزيد فى حجمها زيادة فاحشة عن قدرها الطبيعى ، فيهجوها ويهجو أصحابها هجاءاً مضحكاً ضحكاً

عريضًا ، مطيلا فيه أحيانًا ، وأحيانًا يعمد إلى أبيات قصيرة تلذع لذعًا ، من مثل قوله :

ولحيـــةٍ يحملهـــا مائقٌ   شِبْه الشِّراعَيْن إذا أُشْرِعا
لو قابل الـــريح بهـــا مرَّةً   لم ينبعث من خَطْوِه إصْبَعا
أوغاص فى البحر بها غوْصَةً   صـــادَ بها حِيتانه أجْمَعَا

فلحية هذا الرجل الأحمق بجانبيها المستعرضين كشراعين ، ولكنهما لايساعدانه مع الريح على التنقل كما يساعد الشراعان السفينة ، بل هما يثقلانه حين تقابله الريح ، فلا يستطيع التحرك ، بل إن هذه اللحية العريضة أشبه ما تكون — فى عين ابن الرومى—بشبكة كبيرة ، وأولى بصاحبها أن لايعترض بها الناس فى الطريق ، بل يسقط بها فى البحر ليصيد حيتانه التى يعزّ على الشباك صيدها . ويقول فى صاحب لحية أخرى .

إن تطُلْ لحيـــةٌ عليك وتعْرُضْ   فالمخـــالى معروفةٌ للحمير
علَّق اللهُ فى عِـــذارَيْك مِخْـــلا   ةً ولكنهـــا بغير شـــعير
لحيـــةٌ أُهْملت فطـــالتْ وفاضتْ   فإليها تشير كفُّ المشـــيرِ
ما رأتْهـــا عَيْنُ امـــرىءٍ مارأتْها   قطُّ إلا أهـــلَّ بالتكبيرِ

فما أشبه هذه اللحية — فى عين ابن الرومى— بمخلاة حمار خالية الوفاض من الشعير غذاء الحمار ، وقد طالت ، حتى أصبحت فرجة للغادين والرائحين ببغداد ، وحتى ليشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين من هذه اللحية الغريبة ، بل إن كل من يراها ليصيح : الله أكبر ! تعجباً واستنكاراً واستغراباً مامثله استغراب . وكان له جار أحدب يكثر من الجلوس بجوار باب داره ، وكان إذا أخذ فى الخروج ورآه ارتدّ إلى داره فزعا ، مفضياً إلى تشاؤم شديد ، طبيعة رُكّبت فيه ، ونقصد طبيعة التشاؤم ، إذ بلغ منها مبلغا لم يُعْرَفْ لأحد من معاصريه . فكان إذ رأى الأحدب ، وهو يهمّ بالخروج

من الباب ، عاد فأغلقه عليه ، ولم يخرج من داره طوال نهاره ، وانتقم منه لنفسه شر انتقام ، بقوله فيه يصف حدَبته :

قَصُرَتْ أَخادِعُه وغاب قَذالُهُ — فكأنه متربِّصٌ أنْ يُصْفعا
وكأنما صُفِعَتْ قفاهُ مَرَّةً — وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

فجعله مصفوعا طوال الدهر ، يحاول أن يتقى صفعه بجمع قفاه إلى ظهره جمعا مستمرًّا متصلا ، وكانت العامة فى بغداد ما تزال تنتظر من ابن الرومى هذه الأهاجى التى كانت تدور على أفواهها دوران النوادر ، لتبتسم أحياناً ولتضحك ضحكاً عريضًا أحياناً أخرى ، محاولة أن تتخفف بذلك من أثقال الحياة وأعبائها ومظالمها التى مرت بنا ، أو قل هاربة من ذلك كله إلى ظلال الضحك الوارفة .

ولم يكن يقل عن ابن الرومى سخرية وإضحاكاً فى هجائه إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى ، وكان إذا سلّط أهاجيه على أحد لم يُبْقِ فيه باقية ، إذ كان ما يزال يقذف بأبيات سامة تؤذى من تسقط عليه إيذاء شديداً . ويا ويل من كان يجعل مكافأته له فى المديح قليلة أو يهديه هدية لا تروقه ، فإنه كان يسلّ عليه لسانه بأبيات ساخرة مضحكة ، من ذلك أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى أهداه طيلساناً (ثوبًا) أخضر لم يرقه ، فمضى ينظم فى وصف هذا الطيلسان البالى ، كما يزعم ، مقطوعات متوالية ، وكلما فرغ من مقطوعة نظم أخرى ، حتى تمت له خمسون مقطوعة ، ذاعت فى بغداد على ألسنة الصبية والشباب والأدباء وتخاطفتها الأندية والمحافل ، من مثل قوله :

يابنَ حَرْبٍ كسوتنى طَيْلَسانًا — مَلَّ من صُحْبة الزمان وصَدَّا
إن تنفَّسْتُ فيه ينشقُّ شقًّا — أو تَنَحْنَحْتُ فيه ينقدُّ قدَّا
طال تَرْدادُه إلى الرَّفْوِ حتى — لو بعثناه وحده لتهدَّى

فالطيلسان كلّ وملّ من طول صحبته للزمان ، حتى أصبح لا يستطيع بقاء ، وإن أى حركة فيه لتشقه شقًّا ، وطالما ظهرت فيه شقوق وخروق ، وهو ما يزال ذاهبًا به لدكّان الرفّا راجعًا منه ، حتى لو بعث بالطيلسان إليه لعرف الطريق من طول تردده فيه ، ويقول :

وهبتَ لنا ابن حَرْبٍ طَيْلَسانًا ... يزيد المرءَ ذا الضَّعةِ اتِّضاعا
ولست أَشكُّ أن قد كان قِدْمًا ... لنوحٍ فى سَفينته شِراعا

فهو طيلسان عتيق مغرق فى العتق والقدم ، بل هو نفس شراع سفينة نوح التى استوت على جبل الجودىّ . ويزعم الحمدونى أنه بلغ من الوضاعة حدًّا يتجاوز كل حد ، حتى ليزيد الوضيع وضاعة وخساسة ما بعدها خساسة . وكان يعرف كيف يختار الأبيات التى تصور التياعه إزاء تداعيه على جسده ، يقتبسها من شعراء الحب السابقين ، وبالمثل كان يختار كثيراً من الألفاظ القرآنية كقوله :

فيما كسانيه ابنُ حَرْبٍ مُعْتَبَرْ ... فانْظُرْ إليه ، فإنه (إحدى الكُبَرْ)
قد كان أبيض ثم ما زلنا بهِ ... نرفوه حتى اسودَّ من صَدَإ الإبَرْ

والكُبَرَ : المحرمات الكبيرة ، كأن الطيلسان جريمة كبرى ، وما زالت الإبر ترفوه حتى لم يعد فيه مكان إلا ورفته ، بل إلا واسودّ من صدإ الإبر . وحدث أن شخصًا يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه فى عيد الأضحى شاة هزيلة نحيلة ، فساءته الهدية ، ومضى ينظم فى وصفها مقطوعات كثيرة ، تندّرفيها نوادرشتى ، تارة يصوِّر جوعها ، وتارة ثانية يصور بؤسها وما تشقى به من حرمان العلف ، من مثل قوله المكتظ بالفكاهة والسخرية :

لسعيدٍ شُوَيْهَةٌ ... سَلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرتْ ... رجلاً حاملاً عَلَفْ
بأَبى من بكفِّهِ ... بُرْءُ مابى من الدَّنَفْ
فأتاها مطمِّعًا ... وأتتْه لتعتلفْ
فتولَّى فأَقبلتْ ... تتغنَّى من الأَسَفْ
ليتــه لم يكن وَقَفْ ... عَذَّب القلب وانصرف

فهى ليست شاة ، بل مصغرشاة أوشبه شاة أو خيال شاة لما أصابها من الهزال والضَّنا الذى اعتراها من طول صبابتها بالعلف ولهفتها على رؤيته ، وهى لا تراه ،

obeikandl.com

ولا تزال تتمناه ، وإذا رجل يوما يحمل علفًا ، وتراه فتتضرع إليه أن يشفيها من جوعها وعذابها ، ويطعمها منه ولو قليلا . وأطعمها ، وسرعان ما انصرف عنها ، فأنَّت وغنَّت أسفاً وتمنَّت لو أنها لم تره ، ولو أنه لم يقف ، فقد آلمها ألمًا شديداً وانصرف . ويقول فيها .

مَرَّتْ على عَلَفٍ فقامتْ لم تَسِرْ عنه وغنَّت والمدامعُ تَسْجُمُ

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى مُتأَخَّرٌ عنـــه ولا متقـــدَّمُ

فهى حين رأت علفا تسمَّرت بجانب محبوبها ولم تبرح مكانها ، ومضت تتغنى محزونة ودموعها الغزيرة تسيل على خدودها . والبيت الثانى من قطعة غزلية مشهورة لأبى الشَّيص أحد شعراء العصر العباسى الأول ويروى الرواة أنه أنشدها أبا نواس فأعجب بها إعجابًا شديداً . وكان الناس فى بغداد ما يزالون ينتظرون من الحمدونى مقطوعات فى شاة سعيد بن أحمد وطيلسان ابن حرب ، ضاحكين مهللين ، وبالمثل كانوا ينتظرون أهاجى ابن الرومى الكاريكاتورية ، وكأنما كانت أهاجى الشاعرين تقوم منهم مقام المسارح الهزلية فى عصرنا وما تقدمه من شخوص فكهة .

والرثاء بدوره كان منه الرثاء السياسى ، وكان منه الرثاء الاجتماعى ، ومن مراثى النوع الأول مرثية البحترى الرائية للمتوكل حين سفح دمه الأتراك فى مؤامرة اشترك معهم فيها ابنه وولى عهده المنتصر . ونرى البحترى فى المرثية ثائراً ثورة عنيفة على ولى العهد ، مؤلبا الرعية عليه ، مطالبًا بثأر المتوكل ، متعجبًا أشد العجب من اشتراك ابنه فى دمه ، داعيًا الله أن لا يجعله يتمتع بتراثه واعتلائه عرش الخلافة من بعده ، يقول متوجهاً بخطابه إلى المتوكل :

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدك أو أرى دمًا بدمٍ يَجْرى على الأَرض مائرُهْ

أكان ولىُّ العهد أضمر غَدْرَةً فمن عجبٍ أن وُلِّىَ العَهْدَ غادِرُه

فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مضى ولا حملتْ ذاك الدُّعَاءَ مَنابرُه

ومائره : سائله . ومُلِّى : متّع . والمرثية سياسية خالصة ، فالبحترى يقف فيها مع أنصار الخليفة المقتول من الفرس والعرب ومن بعض الترك مطالبًا بسفح دماء القاتلين للمتوكل ، دمًا بدم يُسْفَك على الأرض . ولا تقل عن هذه المرثية ثورة وعنفًا مرثية ابن الرومى للبصرة حين أغار عليها صاحب الزنج بجموعه الغفيرة

فى غارته المشهورة لسنة ٢٥٧ للهجرة إذ دمّرها تدميراً مشعلا بها الحرائق ، منزلا بها النهب والسلب ، مسرفًا فى قتل أهلها ، حتى قيل إنه قتل منها ثلاثمائة ألف بين رجل وامرأة وشيخ وطفل ، واختفى من بقى فى الدور والخرائب ، وعمت مجاعة مخيفة . وطارت الأنباء بذلك إلى العاصمة حينئذ فى سامراء وإلى بغداد ، وفزع أهلهما والشعراء لهذه الفاجعة المروعة . وصاح ابن الرومى فى الناس محرضًا لهم على الانضمام إلى جيش القائد العظيم الموفق لقتال الزنج وضربهم الضربات القاصمة على نحو ما يلقانا فى ميميته :

ذادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنـــامِ شُغْلُها عنه بالدموع السِّـــجامِ

وهو يرسم فى فواتحها ما أنزل الزنج بالبصرة من العسف والخسف وإشعالهم النيران بها حتى أحالوا قصورها الأنيقة تلالا ورماداً ، وانتهاكهم لمحارم الإسلام وقتلهم للألوف حتى ملئوا الشوارع بالجثث والرءوس والأيدى والأرجل المبتورة وسبيهم للنساء الحرائر وجرّهن حاسرات الوجوه ممزقات الثياب وبيعهن بيع الإماء . ويستصرخ ابن الرومى الشعب فى بغداد وغير بغداد لإغاثة البصرة ونجدتها واستنقاذها من الزنج وفظائعهم ، ويرفع للناس شعارات الجهاد الدينى ، ويناديهم باسم الإسلام والرسول الكريم أن يردّوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم فى قوة ليكيلوا لهم الصاع صاعين على ما ارتكبوا فى البصرة من آثام يشيب لها الولدان ، ويستجيب أهل بغداد والعراق لصراخ ابن الرومى ويسحقون الزنج سحقًا لا تقوم لهم بعده قائمة . ومن المراثى السياسية المهمة التى ذاعت على ألسنة الشعب وأبنائه مرثية رمزية ، هى مرثية ابن العلاف الضرير لهِرٍّ ، وكانت تنعقد بينه وبين ابن المعتز صداقة وثيقة ، وحدث أن تولى المقتدر الخلافة لسنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ولا يكاد يدور عام ، حتى يمتعض كثيرون لخلافة هذا الصبى ، فيبايعوا ابن المعتز ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه ، فيقتل هو وبعض من بايعوه وتعود الخلافة إلى المقتدر . ووجم الشعراء ، فلم يرثوا ابن المعتز الشاعر الأديب العالم ، وكأنهم خافوا على أنفسهم القتل وأن يصيروا إلى ما صار إليه . وتصادف أن كان لابن العلاف هر يألفه ويأنس له ، وكان قد اعتاد أن يدخل أبراج الحمام عند الجيران ويأكل أفراخها ، فأمسك به بعض أصحابها

وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف حزنًا شديداً ، فرثاه رثاء مليئاً بالأسى ، وكأنه يرثى عزيزاً نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهر عن ابن المعتز ، خوفاً على نفسه من غضب المقتدر وحواشيه من الترك إن هو صرَّح بالاسم الحقيقى . ودارت المرثية على الألسنة ، وتناقل الناس عنها قصة شاعت بينهم هى أنه كانت لعلى بن عيسى أحد وزراء المقتدر جارية وقع فى شباك غرامها غلام لابن العلاف ، فافتضح أمرهما ، وقُتلا ، فبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . والمرثية تتجاوز ستين بيتا وفيها يقول :

يا هِــــرُّ فارقْتَنا ولم تعُــدِ وكنتَ مِنَّــا بمنــزل الولَدِ
فكيف ننفكُّ عن هــواك وقد كنت لنــا عُدَّةً من العُدَدِ
تطْرد عنــا الأذى وتحْرسـنا بالغيْب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ
حتى اعتقــدتَ الأذى لجيرتنا ولم تكن للأذى بِمُعْتَقِـدِ
وحمتَ حــول الرَّدَى بِظلمهمِ ومَنْ يَحُمْ حول حَوْضِهِ يَرِدِ
صادوك غيظًا عليــك وانتقموا منك وزادوا ، ومَنْ يَصِدْ يُصَدِ

والمرثية تموج بلوعة شديدة لموت الهر مقتولا ، مع التأمل فى الموت وحقائق الحياة ، وهى تكتظ حقًّا بأحاسيس الحزن ومشاعره ، مما جعل الناس يعتقدون أنها ليست فى هر ، وإنما هى إما فى صديق حميم هو ابن المعتز ، وإما فى ابن عزيز للشاعر .

ومن هذا الرثاء السياسى رثاء الشيعة للحسين وأئمتهم المقتولين ، وهو فى ظاهره رثاء وفى حقيقته استنفار وصراخ واستنجاد بأفراد الأمة كى يردوا الخلافة من العباسيين إلى العلويين مستحقيها الذين طالما سُفكت دماؤهم الزكية ، مع أنهم ورثة الخلافة الشرعيين الذين إن مُكِّنوا — فى رأيهم — منها ملئوا الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا . ومن أجل ذلك ظلت مآتم الحسين قائمة ، وكان لها موسم كل عام فى يوم عاشوراء يجتمع شعراء الشيعة من كل فَجّ بكَرْبلاء ويلقون فيها مراثيهم السياسية المؤثرة ، وممن كانوا يكثرون من هذه المراثى الملتاعة الصنوبرى شاعر الطبيعة المعروف ، وهو فى كثير من مراثيه يقف طويلا عند السيرة العطرة للرسول عليه السلام جد الحسين ، ليعمق

الحزن عليه فى نفوس سامعيه ، كما يصور سيرة أبيه على بن أبى طالب بطل المغازى النبوية ، ثم يندب الحسين ندبًا مؤثراً بمثل قوله :

يومَ الحسين هَـرقْتَ دَمْـ ـعَ الأَرض بل دمع السماءْ
يوم الحسين تركتَ بَا ـبَ العِزِّ مهجورَ الفِنـاءْ
يا كَرْبَلاء خُلقتِ من كَـرْبٍ علىَّ ومن بـلاءْ
نفسى فـداءُ المُصْطلى نارَ الوغى أىَّ اصـطلاءْ
منعـوه طعْمَ المـاءِ لا وجـدوا لمـاءٍ طعْمَ ماءْ
مَنْ للطَّريح الشِّلْو عُرْ ياناً مُخـلىً بالعَـرَاءْ
مَنْ للمحنَّط بالتُّـرَا ب وللمغسَّل بالدمـاء

ويردّد الصنوبرى دائماً أن الحسين قُتل بالقرب من الفرات ، وهو ظامئ متلهف على جرعة ماء ، وسيوف قومه تلغ من دمه الزكى ودم الشباب الطاهر من أهله الذين استماتوا فى الدفاع عنه ، حتى الدَّماء الأخير . وكانت تشبُّ — من حين إلى حين — ثورة للشيعة بقيادة أحد العلويين ، ويكون حتفه فى أمنيته ، فيندبه الشعراء ويبكونه بدموع غزار ، وقد يظل مأتمه قائمًا مدة طويلة . ولعل أكبر مأتم لعلوى شهده هذا العصر مأتم يحيى بن عمر العلوى الذى ثار بالكوفة ضد الدولة لسنة ٢٥٠ للهجرة ، فجردت له جيشاً كثيفاً ، وسرعان ما اندحر جيش يحيى ، وخرَّ صريعاً فى ساحة المعركة ، فنصبت له الكوفة وشيعة العراق مأتمًا كبيراً ناح فيه الشعراء نواحاً كثيراً ، وفى مقدمتهم ابن الرومى بقصيدته الجيمية المؤثرة ، وفيها يحييه قائلا :

سلامٌ وريْحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظِّلِّ سَجْسَجُ
ويا أسفى أن لا يرد تحيَّةً سوى أَرَجٍ من طيب رمْسِك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمـائمُ بعدما ثويتَ وكانت قبل ذلك تهْزِجُ

وسجسج : معتدل بين الحر والبرد . وقد مضى ابن الرومى يبكى فى القصيدة مع يحيى أئمةَ العلويين المقتولين منذ الحسين شهيدهم الأول بكربلاء ،

وعَنُفَ بالعباسيين وقائد جيشهم المنتصر محمد بن عبد الله بن طاهر عنفاً شديداً ، وتوعدهم جميعاً بثائر علوى جديد يرد الأمر إلى نصابه . والمرثية لذلك مرثية سياسية واضحة . ورُثِى يحيى بمراث أخرى كثيرة ، من أهمها مرثية أحمد بن أبى طاهر المعروف بابن طَيْفور صاحب تاريخ بغداد ، وفيها يقول :

سلامٌ على الإسلام فهْو مودِّعُ ... إذا ما مضى آلُ النبيِّ فودَّعوا
فقدنا العُلا والمجد عند افتقادهم ... وأضحتْ عروشُ المكرمات تَضَعْضَعُ
لقد أقفرتْ دارُ النَّبيِّ محمَّدٍ ... من الدين والإسلام فالدارُ بَلْقَعُ
وقُتِّلَ آلُ المصطفى فى خلالها ... وبُدِّد شَمْلٌ منهمُ ليس يُجْمَعُ

والرثاء الاجتماعى فى العصر كثير كثرة مفرطة . وطبيعة الرثاء تجعله اجتماعيًّا ، مهما يكن متصلا بفرد من الأفراد ، لأنه يتحدث عن الحياة والموت ، وفراق الأبناء والأهل والأصدقاء والأعلام النابهين ، وكل ذلك يشترك فيه أفراد المجتمع . وقد اشتهر فى العصر ابن الرومى برثائه لابنه الأوسط الذى اختطفه منه الموت ، وهو لا يزال فى المهد صبيًّا ، فحزن عليه أشد الحزن ، وأخذ يبكيه بمثل قوله :

أريحانةَ العَيْنين والأنفِ والحَشا ... ألا ليت شعرى هل تغيَّرتَ عن عهْدِى
كأنِّىَ ما استمتعتُ منك بِضمَّةٍ ... ولا شمَّةٍ فى ملعبٍ لك أو مَهْدِ

ويكثر رثاء الأعلام الممتازين فى جميع فروع العلم والفن ، مما يعكس صورة العصر فى بعض جوانبها ، كما يكثر رثاء الخلفاء والوزراء وقادة الحروب العظام ، وللبحترى مرثية بديعة يرثى بها جماعة من بنى حُمَيْد الطوسى ، سقطوا فى ميادين النضال بالثغور كما سقط جدهم البطل محمد بن حميد الطوسى الذى مر بنا ذكره فى العصر الماضى ، وفيهم يقول :

قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنَّما ... مواقعُهم منها مواقعُ أنْجُمِ
مضوا يستلذُّون المنايا حفيظةً ... وحفظا لذاك السؤدد المتقدِّم
وكلهمُ أفضى إليه حِمامُه ... أميرًا على تدبير جيشٍ عَرَمْرَمِ

مساعٍ عظامٌ ليس يَبْلَى جديدُها وإن بَلِيَتْ منهم رمائمُ أعْظُمِ

والمرثية ندب حار لهؤلاء الأبطال الذين بذلوا أرواحهم فداء لوطنهم واستبسالا وجهاداً بعد ما أنزلوا بالأعداء من دمار وبعد أن نكلوا بهم ومزقوهم مراراً وتكراراً .

وطبيعى أن يظل للغزل ازدهاره ، إذ يعكس دائمًا وجدان الأمة ، وكان يجرى فى تيارين : الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر تدفقاً وحدة ، بسبب كثرة الجوارى وكثرة دور النخاسة التى كانت تعرض منهن العشرات من كل جنس : فارسيات ورروميات وغير روميات وفارسيات . وقد مضى كثير من الشعراء يتغزلون فيهن غزلا صريحًا صادرين فيه عن غرائزهم النوعية دون أى احتشام . وكان لا يزال الغزل العفيف ، الذى رأيناه فى العصر الماضى عند العباس بن الأحنف ، حَيًّا حياة خصبة ، فنيرانه كانت لا تزال متقدة فى كثير من الصدور . ويخيل إلى الإنسان كأن الغزل كان الشغل الشاغل لجميع طبقات الأمة ، حتى ليشترك فيه الخلفاء والأمراء من أمثال المعتز وأخويه المنتصر والمعتمد والراضى بأخرة من العصر وابن المعتز وكان شاعراً بارعاً ، وله فى الغزل كثير من الصور الطريفة من مثل قوله :

يا غُصْناً إن هَـزَّه مَشْيُهُ خشيتُ أنْ يسـقط رُمَّانُهُ

وقوله

إذا اجتنى وردةً من خَدِّها فَمُهُ تكوَّنتْ تحتها أُخرى من الخَجَلِ

ويلقانا كثير من الوزراء الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصنع مقطوعات الغزل ، وفى مقدمتهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وإليه يُنسب البيت المشهور :

ليس يُسْتحْسَنُ فى شرْع الهوى عاشقٌ يحسن تأْليف الحُجَجْ

وعلى شاكلته سليمان بن وهب وزير المهتدى ، فله مقطوعات غزلية كثيرة تدور فى الكتب الأدبية . ويكثر الغزلون بين رجال الدولة ورؤساء الدواوين . أما الشعراء فهم جميعاً — وكانوا يعدون بالعشرات — لهم غزل لا يكاد يُحْصَى ،

ومن أبيات الغزل التى اشتهرت فى العصر ودارت على كل لسان قول على بن الجَهْم :

عيونُ المهَا بين الرُّصافة والجِسْرِ جَلبْنَ الهوى من حيث أدْرى ولا أدْرى
أعدنَ لىَ الشوق القديمَ ولم أكن سلوتُ ولكن زِدْن جَمْراً إلى جَمْرِ

وهى صورة رائعة لسهام الحب التى ترسل إلى المحب من كل مكان مكشوف ومستور من حيث يعلم ابن الجهم ومن حيث لا يعلم ، وقد أعدن له جذوة الشوق القديم وزدنها جذوات جديدة ، جعلته يلتاع لوعة ما بعدها لوعة . وممن كانوا يحسنون نظم مقطوعات الغزل إلى أبعد حدّ الحسين بن الضحاك من مثل قوله :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتى خلتُ أنى — وما أراك — أراكا
وإذا ما تنفَّس النَّرْجِسُ الغضُّ توهَّمته نسيمَ شذاكا
خُدَعٌ للمنى تعلِّلنى فيك بإشراق ذا وبهجةِ ذاكا
لأدومنَّ يا حبيبى على الودِّ لهذا وذاك إذ حَكيَاكا

والقطعة تصور رهافة الشعور التى عكستها المدنية العباسية فى نفوس الناس ، كما تصور دقة الأحاسيس ، فليست صاحبته هى التى تحكى البدر ، بل هو الذى يحكيها فى إشراقه ، وبالمثل لا تحكى النرجس بل هو الذى يحكيها فى بهجته وجماله ، وهو لا يودها فحسب ، بل أيضاً يودّ شبيهيها : النرجس والورد . وكثير من غزل الحسين مادى ، ومع ذلك له قطعة فى الحب تخلو أو تكاد تخلو من المادة والحسّ ، إذ يقول :

إنَّ مَنْ لا أرى وليس يرانى نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأمانى
بأبى مَنْ ضميرُه وضميرى أبداً بالمغيبِ يَنْتجيانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا ن إذا ما اختبرتَ يمتزجانِ
فإذا ما هممتُ بالأمر أوهمَّ بشىءٍ بدأته وبدانى
كان وَفْقاً ما كان منه ومنى فكأنى حكيتُه وحَكانى

خطراتُ الجفون منا سواءٌ وســـواءٌ تحرُّك الأبدانِ

وتأثير الفلسفة واضح فى القطعة ، وكأنها تصور حبًّا أفلاطونيًّا ، فالمحبوبان متحدان كأنهما شخص واحد وروح واحدة ، وإن ظن الناظر إليهما أنهما شخصان وروحان ، فأفكارهما ومشاعرهما وخواطرهما واحدة ، بل حتى حركاتهما وإشاراتهما واحدة . والقطعة تصور فكر الأمة العربية فى العصر العباسى ، وكيف داخلته انطباعات فلسفية حتى فى الحب ومواجده . ويقول ابن أبى طاهر المعروف باسم ابن طيفور :

حبيبى حبيبٌ يكتم الناسَ أنه لنا ـ حين ترمينا العيونُ ـ حَبِيبُ
يباعدنى فى الملتقى وفؤادُهُ ـ وإن هو أبْدى لى البِعادَ ـ قريبُ
ويُعْرِض عنى والهوى منه مقبلٌ إذا خاف عَيْناً أو أشار رقيبُ
فتخرَسُ منا ألْسُنٌ حين نلتقى وتنطق منـــا أعينٌ وقلـــوبُ

وهو يصور كتمانه هو وصاحبته الهوى ، فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما مولع محب ، مغرم صبابة وهياما ، ولا يستطيع إظهار حبه . وهما يتكلفان التحفظ ، حتى لا يفتضح أمرهما ، خوف الرقباء ، فتخرس منهما الألسنة وتنطق العيون بما فى الضمير من حب ووجد . ويصور ذلك أبو العباس الناشئ الأكبر قائلا :

متعاشـــقان مُكاتمان هَواهما قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلانِ اللَّحْظَ من جَفْنَيْهما فكأنما يتـــدارسان كتابا

فهما يكتمان الهوى ولا يبيحان به خشية الوشاة والرقباء، غير أنهما يتبادلان اللحظ والنظرة فى الحين بعد الحين وكأنما يتناقلان حديثا صامتاً ، بل لكأنما ـ كما يقول ـ يتدارسان كتاباً لا أول لصفحاته ولا آخر ، صفحات تحكى عذابهما فى الحب واصطلاءهما بنيرانه التى لا تخمد . وللناشئ كثير من الصور الطريفة فى الغزل من مثل قوله :

يلوحُ فى خدِّهِ وَرْدٌ على زهَرٍ يعود من حُسْنه غضًّا إذا قُطِفا

ويريد بالزهر زهر النرجس الذى يشبه به الشعراء العيون ، وصوَّر القبلة بأنها اقتطاف لورد الخدود ، كما صوَّرها بأنها تترك فى الخدود وراءها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً إلى أول اجتنائها وباكورته .

ويكثر الغزل فى العصر كثرة مفرطة ، وتكثر معه قصص المحبين ، ويفتح لهم أبو الفرج فصولا مختلفة فى كتابه « الأغانى » وممن اشتهر بحبه فى العصر البحترى ، فقد أحبّ عَلْوة الحلبية حين كان ينزل بحلب فى شبابه ، وظلت دارها قائمة هناك معروفة حتى القرن السادس الهجرى إذ نرى ياقوت يقول : « فى وسط حلب دار عَلْوة صاحبة البحترى » . وكانت قد بادلته حبًّا بحب ، وله فيها غزل كثير ، وظلت ذكراها لا تبرح مخيلته على نحو ما نرى فى قوله وهو بسامرَّاء :

كم ليلةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُهَا ولوعةٍ فى هــواكِ أُضْمِرُها
وحُرْقةٍ والدُّمُــوعُ تُطْفِئُهــا ثم يعود الجَوَى فيُسْعِرُها
يا « عَلْوَ » عَلَّ الزمان يُعْقبنا أيامَ وَصْل نظلُّ نشكرها

وكان قد بلغ الخمسين من عمره ، وكأن السنوات الطويلة التى فصلت بين حبه ، وهو يخطو فى شبابه ، وبلوغه الخمسين لم تخمد نار حبه المتقدة فى صدره وبين جوانحه ، وعبثًا كان يطفئها بالدموع ، فقد كانت سرعان ما تعود أشد اتقاداً واشتعالاً ، ولكن ماذا يصنع ؟ إنه يلجأ دائمًا إلى الدموع قائلا :

وخلافُ الجميل قولُك للذَّا كر عَهْدَ الأحباب صَبْراً جميلا
لا تلُمْهُ على مواصلة الدَّمْـ ـع فلُؤْمٌ لَوْمُ الخليل الخليلا
عَلَّ ماءَ الدموع يُخْمد ناراً من جوى الحُبِّ أو يَبُلُّ غليلا

ودارت على الألسنة حينئذ قصة عشق سعيد بن حُمَيْد وفضل الفاتنة الشاعرة ، وكان سعيد يعمل فى الدواوين وولى ديوان الإنشاء فترة ، أما فضل فقد فاقت

الجوارى فى عصرها فصاحة وشعراً ، فهويها سعيد وأخذ ينظم فيها مقطوعات كثيرة من مثل قوله :

يا ليلُ بل يا أبَدُ أنائمٌ عنك غَدُ
أشكو إلى ظالمةٍ أشكو الذى لا تجد
وَقْفٌ عليها ناظرى وَقْفٌ عليه السُّهُدُ

ووجد غزله بعض الصدى فى قلب فضل ، وأخذت تشفق عليه ، وصبا قلبها إليه ، ففتحت له بابها للزيارة مع من كان يزورها من علية القوم ، وكان بيتها تعقد فيه مساءً ندوة كبيرة ، إذ كانت لها مكانة مرموقة . ولم يلبث أن تحوَّل عطفها على سعيد إلى محبة كان يحسده عليها كثيرون وأخذا يتكاتبان شعراً يصوران فيه حبهما ، واتصلت الكتابة ، وروى أبو الفرج منها أطرافاً ، منها ما يصور الحنان بين المحبين ، ومنها ما يصور العتاب الرقيق ، فمن ذلك أنه عتب عليها يوماً أنها لا تُقْبل عليه فى مجلسها ، ولا تظهر للناس حبها واصطفاءها له ، فكتبت إليه :

وعيشِك لو صرَّحتُ باسمك فى الهوى لأقصرتُ عن أشياءَ فى الهَزْل والجِدِّ
ولكننى أبدى لهذا مودَّتى وذاك وأخلو فيك بالبَثِّ والوَجْد

فهى سيدة كريمة تقبل على من يجالسونها جميعاً ، ويظن سعيد أنهم ينزلون منها منزلته أو فوق منزلته وهى إنما تخصه بالحب والوجد فكتب إليها سعيد مصوراً حبه لها وصبابته بها :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأنهى جفونى أن تبثَّكِ ما عندى
فإن كنتِ لا تدرين ما قد فعلتِه بنا فانظرى ماذا على قاتل العَمْد

وكثيراً ما كانا يتعاتبان على عادة المحبين ، وكثيراً ما كانا يتغاضبان ، وسرعان ما يعودان إلى الود والحب ، وكل منهما يشكو لصاحبه ما يلقى من عذاب الهجر وآلامه . وكانت لا تزال الرقاع بينهما ذاهبة آيبة ، ومما كتبته له فى بعض الرقاع مستعطفة متلطفة آملة فى اللقاء :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقام يزيدُ   والدارُ دانيـــةٌ وأنت بعيد
أَشكوك أم أشكو إليك فإنه   لا يستطيع سواهما المجهــود

ونعجب أن لا تحتفظ كتب الأدب بما كان بين هذه العاشقين من رسائل متبادلة للأجيال التالية إلا أشياء قليلة ، مع أنها كانت تُعَدّ بحق من طُرف العصر وتحفه . وشاعت فى العصر قصة حب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد لشاجى ، وكانت جارية مغنية ، فتنته بجمالها وصوتها ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ، ووقع من قلبها كما وقعت من قلبه ، وتزوجته ، ورُزق منها الولد ، وظل بها مغرماً كلفاً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه واقترانه بها ، وفى ذلك يقول :

زرعتُ وشاجى بيننا فى شَبيبتى   غِراسَ الهوى فاعتمَّ بالثَّمر العَذْبِ

واغتصبها الموت منه ، فاسودت فى عينيه الدنيا ، وجزع جزعاً لم يجزعه أحد ، وظل يبكيها بكاء حاراً فى قصائد كان يتداولها الناس فى بغداد ، وفيها يتفجع ويتوجع أشد ما يكون التوجع والتفجع ، من مثل قوله :

يميناً بأنى لو بُليت بفقدها   وبى نبْضُ عِرْقٍ للحياة وللنُّكْسِ
لأَوشكتُ قتل النفس عند فراقها   ولكنهاماتتْ وقد ذهبتْ نفسى

وأكثر الشعراء فى العصر تصويراً لدقائق الحب وما يثير فى النفس من أهواء ومشاعر ابنُ الرومى ، وكان يجسد جحيمه وعذابه . كما كان يجسد نعيمه ومتاعه وما يجتنى المحبون فيه ويقطفون من زهرات الحب وثماره . وله فيه كثير من المعانى الطريفة المبتكرة التى لم يسبقه إليها سابق ، كقوله فى عناق بعض محبوباته :

أعانقها والنَّفْسُ بعدُ مشوقةٌ   إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تزول حرارتى   فيشتدّ ما ألقى من الهَيمان
كأَن فؤادى ليس يَشْفى غليله   سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يشفى غليل ظمئه ، وكأن فى قلبه ناراً أوقدها الحب ، ولا يمكن أن يطفئها شىء ، فهى ما تنى مشتعلة ، مهما نعم بالعناق ، إذ لا يزال يحس

الظمأ واللهفة واللوعة ، طامحًا إلى امتزاج الروحين . ومن صوره البارعة فى وصف سحر العيون ، وما تَبْرى من سهام لا تزال ترسلها إلى قلوب العشاق والمحبين :

نظرتْ فأقصدتِ الفؤادَ بِسَهْمها ثم انثنتْ عنه فكاد يَهيمُ
ويلاهُ إن نظرتْ وإن هىَ أعرضَتْ وَقْعُ السِّهام ونَزْعُهُنَّ أليم

فنظرة هذه الفاتنة سهم حقيقى ، وهى سهم يؤلم بسقوطه على الجسم حين تنظر ، وبنزعه منه حين تعرض ، فياويح من تنظر إليه ومن تنصرف عنه . وأبعد من هذا التخيل والتصور قوله :

صدورٌ فوقهن حِقاقُ عَاجٍ وحَـلْىٌ زانه حُسْنُ اتِّسـاقِ
يقول الناظرون إذا رأوها أهذا الحَلْىُ من هذى الحِقاق

فهو حلى عجيب مأخوذ من حقاق عجيبة ، وقد وصل بينهما خيال ابن الرومى هذا الوصل البديع .

ولعل العصر لم يعرف شاعراً عذريًّا ، كما عرف فى محمد بن داود الأصبهانى صاحب كتاب الزّهرة ، وقد جعل الجزء الأول منه نصوصًا من الغزل العفيف وزَّعها على خمسين بابًا ، وكان فقيهًا على مذهب أبيه داود الظاهرى ، وكانت حلقته من أكبر الحلقات لعصره ، ومعنى ذلك أنه حتى الفقهاء شاركوا فى الغزل حينئذ ، وكان ظريفًا وفيه دعابة ، كما كان فطنًا ذكيًّا ، ويُرْوَى أن شخصاً تعرَّض له فى حلقته يسأله متى يكون الإنسان سكران ؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم ! . ويُقال إن ابن الرومى جلس يومًا فى حلقته ، ودفع إليه ورقة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وقلبها وكتب فى ظهرها الإجابة ، وراجع تلاميذه الورقة ، وإذا ابن الرومى قد كتب إليه بالسؤال التالى :

يابنَ داودَ يا فقيهَ العراقِ أفْتِنا فى قواتل الأحـداقِ
هل عليهنَّ فى الجروح قصاصٌ أم مباحٌ لها دَمُ العشّاقِ

ونظروا فى ظهر الورقة ، وإذا الجواب :

كيف يفتيكمُ قتيلٌ صريعٌ بسهام الفـــراق والإشتيـــاق
وقتيلُ التَّلاقِ أَحسنُ حالاً عند داودَ من قتيل الفراقِ

ولعل فى هذا ما يدل على شيوع الغزل فى جميع البيئات حتى على لسان الفقهاء وفى مجالسهن . ولابن داود غزل كثير ، يصف فيه عذاب الحب النقى وآلامه وما يحتمل فيه من أوصاب الهجر وأوجاعه . على شاكلة قوله :

وكم جَرَّبْتُ من وَصْلٍ وهَجْرٍ ومن حال ارتفاع واتِّضاع
وكم كأْسٍ أَمرَّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عنها ذراعى
ولم أَرَ فى الذى لاقيتُ شيئاً أَمرَّ من الفراق بلا وداعِ

وهو يقول : كم شرب من الحب كئوسًا مرة شديدة المرارة ، فتحمَّلها صابراً ، ويقول : إنه ليس أشد هولا على المحب من الفراق بلا وداع وبلا نظرة أو سلام أو حتى تحية ولو من طرف خفى . ويصرح مراراً بأن حبه عفيف نقى شديد النقاء ، لا يتصل به ظن ولا ريبة ولا أى تهمة :

لا تُلْزِمنِّى فى رَعْىِ الهَوَى سَرَفاً فما أوفِّيه إلا دون ما يجبُ
فى عفَّةٍ نَتحامى أَن يُلمَّ بها سوى الظنون وأَن تغتالها الرِّيَبُ

وكان من أهم العوامل فى شيوع الغزل وانتشاره على ألسنة الناس استمرار ازدهار الغناء ، وكان المغنون والمغنيات منقسمين إلى مدرستين كبيرتين : مدرسة محافظة تتبع إسحق الموصلى ومدرسة مجددة تتبع إبراهيم بن المهدى . وكان من هؤلاء المغنين من يتقن نظم الغزل كما يتقن الغناء ، فكان غزله يمتاز برشاقة وعذوبة وحلاوة موسيقية رائعة من مثل قول عبد الله بن العباس المغنى :

بـأَبى زَوْرٌ أَتانى بالغَلَسْ قمت إجلالًا له حتى جَلَسْ
زارنى يَخْطِـــر فى مِشْيتـــهِ حوله من نور خَـــدَّيه قَبَسْ
فتعانقنـــا جميعًا ســـاعةً كادتِ الأَرواحُ فيها تُخْتَلَسْ

قلت يا سُؤْلِى ويا بَدْرَ الدُّجَى في ظلام الليل ما خِفتَ العَسَسْ
قال : قد خِفتُ ولكنَّ الهَوَى آخذ بالروح منى والنَّفَسْ

ويمتلئ كتاب الأغانى بتراجم المغنين والمغنيات فى العصر مع تدوين أشعارهم التى تغنوا فيها وما لحنوه من أصوات وأغان . ويدل على كثرة ما تغنَّوا فيه من أشعار ما يروى من أن الخليفة المعتمد أمر على بن يحيى المنجم نديمه أن يجمع الأغانى التى صنعتها عَريب ، فأخذ منها الصحف والدفاتر التى دوّنت فيها أغانيها ، فكانت ألف أغنية بارعة . وهذا ما تغنت فيه جارية واحدة ، فما بالنا بما تغنى فيه عشرات المغنيات والمغنين ؟ إنه شيء يعزُّ إحصاؤه ، وكأن الناس لم يكن لهم من شاغل فى هذا العصر إلا أن يختلفوا إلى دور الغناء ، مثلهم فى ذلك مثل سالفيهم فى العصر السابق لعصرهم . وكانت قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم تكتظ بالقيان ، وبالمثل دور النخاسين ، وقلما كان فى بغداد ومدن العراق من لا يحظى فى داره بجارية مغنية تمتعه بغنائها صباح مساء . وكثيرات من الجوارى كن يُبعْنَ ويرحلن فى البلاد ويحملن معهن أغانى الحب والغزل . والمهم أن المغنيات والمغنين جميعًا عملن على ذيوع هذه الأغانى ، ويُرْوَى عن محمد ابن داود أنه كان يسير يومًا فى بغداد مع القاضى محمد بن يوسف ، فسمع جارية تغنى فى شعره :

أَشكو غليلَ فؤادٍ أَنت مُتْلِفُهُ شكوى عليلٍ إلى إلفٍ يعلِّلُهُ
سقمى تزيد ــ على الأيام ــ كثرته وأَنت ــ فى عُظْم ما أَلقى ــ تقلِّله
الله حَرَّم قتلى فى الهوى سَلَفاً وأَنت ــ يا قاتلى ــ ظلماً تحلِّله

ولم تكن الجوارى ــ كما مر بنا فى العصر العباسى الأول ــ يُشِعْنَ شعر الحب والغزل عن طريق الغناء به فحسب ، فقد كن يكتبن أبياتًا رقيقة منه على ثيابهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن وذوائبهن وفرشهن ، حتى يجذبن إليهن الرجال ، وكان التجار يستغلون ذلك ــ كما مرَّ بنا ــ فكثرت كتابة شعر الحب على كل ماتلبسه المرأة وتتزيَّن به .

ومضى شعراء الغزل والحب — كما مر بنا فى العصر الماضى — يحاولون القرب من لغة الجمهور اليومية ، حتّى يتيحوا لغزلهم كل ما يمكن من ذيوع بين العامة ، مجرين فيه تياراً دافقاً من الرقة ، حتّى يقع موقعاً حسناً من الجوارى ، وحتّى يعجبهن ما فيه من رهافة الشعور وسهولة الألفاظ ، على شاكلة ما يلقانا عند خالد بن يزيد الكاتب إذ يقول :

رقـدتَ ولم ترْثِ للسّـاهرِ　　وليـلُ المحبِّ بـلا آخرِ
ولم تدْرِ بعد ذهاب الرُّقا　　د ما صنع الدّمْعُ بالناظر

وهو ساهر يبكى بدموع غزيرة ، والمحبوبة بجانبه ، يتجشّم آلام الحب المبرحة ، وكأنما لم يعد لليل آخر ، فالظلام يغطّى الكون ويستره ، وتستّره معه الدموع التى لا تجفّ ولهاً وصبابةً . ومن طريف ما نقرأ من غزل خفيف قول الحسين بن الضحاك :

عـالمٌ بحبّيـهِ　　مُطْـرِقٌ من التّيـهِ
يوسـفُ الجمـالِ وفر　　عـونُ فى تعـدّيه
ما الحيـاة نافعـةٌ　　لى عـلى تأبّيـه
النعـيمُ يشـغله　　والجمـالُ يُطْغيـه

والمقطوعة تذوب رقة وعذوبة ، وتكاد تطير عن الفم بخفة طيراناً ، سواء بوزنها القصير الوافر اللحن والنغم أو بمعانيها المتقابلة أو بألفاظها السهلة المألوفة ، وعلى شاكلتها قول الجارية فضل :

عَلَمَ الجمـالِ تركتنى　　فى الحب أشهرَ من عَلَمْ
ونصـبتَنى يا مُنْيـتى　　غرضَ المظِنّـة والتُّهَـم
فارقتـنى بعـد الدنـ　　ـوِّ فصرتَ عندى كالحُلُمْ
ما كان ضرّك لو وصلـ　　ـتَ فخفّ عن قلبى الألَمْ

وهى تجعل محبوبها علماً للجمال كما تجعله مُنْيتها ، ثم تقول له إنك شهرتنى

بحبك ثم هجرتنى هذا الهجران الطويل ، حتى صارت أيام وصلك كأنها حلم ، وتود لو ظفرتْ ثانية بوصله حتى تزايلها أوصاب حبها المبرحة . والمقطوعة كسابقتها تكتظ بالنغم ، ولغتها سهلة خفيفة شديدة الخفة . ومثلها قول جحظة البرمكى :

وقلتُ لها : بَخِلْتِ علىَّ يَقْظَى　　　فجــودى فى المنام لمستهامِ
فقالتْ لى : وصرتَ تنام أيضاً　　　وتطمع أن أزورك فى المنام

وفكرة البيت الثانى فى غاية اللطف والرقة . ولغة هذا الغزل كله لا تفترق عن اللغة اليومية فى السهولة والبساطة ، وكان ذلك يشيع فى الغزل جميعه ، إلا حين يجنح بعض الشعراء إلى الجزالة والرصانة ، ولم يكن ذلك الغالب ، إنما كان الغالب أن يجنحوا إلى العذوبة والخفة والرشاقة .

وكان من الشعراء فى العصر مَن يعكفون على الخمر فى حوانيتها وحاناتها وفى دور النخاسين والأديرة والمتنزهات ، وكان منهم من لا يكاد يفيق منها إلا لكى يعود إليها أكثر شوقًا ولهفة ، ونراهم يصفونها ويصفون مجالس أنسها ودنانها وكئوسها وسقاتها والنشوة بها وصفًا كله شغف وغبطة وابتهاج . وشياطين كثيرون كانوا يتعاشرون ويترافقون فى الحانات والمتنزهات والأديرة ، وكان حى الكَرْخ ببغداد يكتظ بهم مثل عصابة أبى هفّان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيناء ، وكانوا يسمون شياطين العسكر لإدمانهم على الخمر والمجون ، ومثلهم عصابة أبى السفاح الأنصارى وعبدالله بن رضا وإسماعيل بن يوسف الذين تعاهدوا أن لا يقولوا شعراً إلا فى وصف الخمر ، وظلوا على ذلك طوال حياتهم . وكان وراء هؤلاء من يعاقرونها ويصفون أهواءها الجامحة ، وهم فى ذلك إنما يصوّرون طبقة كبيرة ، كانت تعاقرها مثلهم وتتهالك على لذاتها الآثمة ، وكأنما كان ابن المعتز يصفهم إذ يقول :

شربنا بالكبير وبالصغيرِ　　　ولم نَحْفل بأحداث الدهورِ
وقد ركضتْ بنا خيلُ الملاهى　　　وقد طِرْنا بأجنحة السرور

وهو يصور عكوف هذه الطبقة على الخمر وعَبِّهم منها بالأقداح الكبيرة والصغيرة ، وهم يكادون يطيرون فرحًا ومسرة إذ يتناولونها ، وكأنها الداء والدواء والسقام والشفاء ، ولابن المعتز فيها أشعار كثيرة من مثل قوله فيها وفى جارية حملت كئوسها له :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيهٍ بِشَعْرِها ... شبيهةَ خَدَّيها بغير رقيبِ
فأَمسيتُ فى ليلين : بالشعر والدُّجَى ... وخَمْرين من راحٍ وخَدٍّ حَبيبِ

وكثير من شعره فيها وفى الغزل يمتاز بالسهولة المفرطة ، مما جعل بعض معاصريه يثيرون غباراً كثيفًا ضده ، وردَّ عليهم أبو الفرج فى كتابه الأغانى ردًّا مسهبًا قائلا : « شعره إن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين . . وليس يمكن واصفًا لصَبوح (خمر الصباح) فى مجلس ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْر والبنفسج والنَّرجس ومنضود من أمثال ذلك . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السهل الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه والظبى والظليم (ذكر النعام) والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة » .

ولا ريب فى أن أبا الفرج أنصف ابن المعتز ، إذ لاحظ من حقه أن يتطور بشعره وأن يصور فيه بيئته وحضارته وعصره ، ولاحظ أبو الفرج أيضًا أنه من حق ابن المعتز أن يبسِّط لغته وأن ييسِّرها ويخليها من شوائب الألفاظ الآبدة الغريبة فى الغزل ونعت الخمر ، بحيث تكون سلسة عذبة ، حتى يقع موقعًا حسنًا من معاصريه . ومثله كان ابن الرومى فى غزله وخمره جميعًا ، ولعل أحداً لم يصور أثر الخمر فى نفوس المجان وما تحدث فيهم من السرور وانفساح الأمل ، حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحدوثه ، كما صور ذلك فى قوله :

ومُدامـــةٍ كحُشاشة النَّفْسِ ... لَطُفَتْ عن الإدراك والحِسِّ
لنسيمها فى قلب شاربها ... رَوْحُ الرجاءِ وراحةُ النَّفْسِ
وتمدُّ فى أمل ابنِ نَشْـــوتها ... حتى يؤمِّل مرجعَ الأَمْسِ

وطبيعى أن تسهل لغة الخمريات لأن من كانوا ينظمونها كانوا يوجهونها غالباً إلى المجّان الذين يختلطون بهم فى الحانات ، وقد يسقُّون لأنهم يوجهونها أحياناً إلى غلمان هذه الحانات وكانوا أخلاطاً من أبناء الفرس وغيرهم ممن لا يحسنون اللغة المرتفعة عن لغة حياتهم اليومية . ومن المؤكد أن ابن الرومى كان أكثر شعبية من ابن المعتز ، فقد كان الثانى أميراً من أبناء القصور ، بينما كان ابن الرومى من أبناء الشعب ، فتأصلت الشعبية فى نفسه ، مما جعله يقترب اقترابًا شديداً فى خمره وغزله وغيرهما من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية ، حتى ليستحيل كثير من أشعاره إلى ما يشبه صحيفة شعبية ، بما صوَّر فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعهم ، إذ نرى رؤية واضحة الحكّام والقضاة والعلماء من كل صنف والكتّاب والبزّازين والعطّارين والخبّازين والحمّالين والشوّائين والشحّاذين ، كل أولئك وأضرابهم يُرْسَمون فى أشعاره ، وتُرْسَمُ معهم ملابسهم ، حتى ملابس البؤساء المرقّعة والبالية . وكان منهومًا بالأطعمة ، فلم يترك لونًا من المآكل والحلوى والشراب دون أن يصفه ، ومن قوله فى رءوس خرفان مشوية وما معها من أرغفة :

روسٌ وأرغفةٌ ضخامٌ فخمةٌ قد أُخرجتْ من جاحمٍ فوّارِ
كوجوه أهل الجنة ابتسمتْ لنا مقرونةً بوجوه أهل النارِ

وله مقطوعات بديعة فى المرقّقات والقطائف والأطعمة والفواكه ، وبذلك أعطانا صوراً حية للمآدب فى بغداد والولائم . وكل ما قدمنا جعل ابن الرومى من أقرب الشعراء إلى روح الشعب ، كما جعل لغته قريبة قربًا شديداً من لغته فى حياته العاملة اليومية ، لا فى هذه الموضوعات الشعبية الخالصة فحسب ، بل فى كل الموضوعات والأغراض التى تناولها ، حتى فى المديح ، وتشهد لذلك أبيات هنّأ بها الخليفة المعتضد حين زُفّت إليه قَطْر النَّدَى الأميرة المصرية بنت خمارويه ، كان الشعب فى بغداد يتغنّى بها فى استقبالها مهللاً مبتهجًا ، وهى تمضى على هذا النمط :

يا سيِّد العُرْب الذى زُفَّتْ له باليُمْن والبركات سيدةُ العَجَمْ

اسْعَدْ بها كسعودها بك إنها ظفرتْ بما فوق المطالب والهِمَمْ
ظفرتْ بِمِلْئَىْ ناظريها بهجةً وضميرِها نُبْلاً وكفَّيْها كرَمْ
شمْسُ الضُّحَى زُفَّتْ إلى بَدْرِ الدُّجَى فتكشفتْ بهما عن الدنيا ظُلَمْ

ومن تتمة هذه الطوابع الشعبية عند ابن الرومى شغفه شغفًا لم يُعْرَف لشاعر قبله بالطبيعة . وكأنه يصور فى هذا الشغف فتنة البغداديين بها وبمشاهدها الخلابة ، ومعيشتهم فيها مع كل نبضة وكل همسة وكل حركة ، معيشة كلها وَلَهٌ وهيام بالصباح حين يغمر الضياء الكون ، وبالمساء حين تودع الشمس الطبيعة وتترقرق لوداعها دموع الندى فى عيون الأزهار محزونة حزن المحبين ، وبالنسيم العليل حين ينعش الأرواح ، وبالأغصان حين تداعبها الرياح ، وبالطير حين تشدو فتملأ الجو مرحًا ، وبعطر الطبيعة البهيج يملأ النفس حنانًا ومودة كرائحة الأولاد البارِّين ، ونسوق له قطعة تصور هذا الجانب عنده وعند معاصريه من البغداديين :

ورياضٍ تخايَلُ الأَرضُ فيها خُيَلاءَ الفتاة فى الأَبْرادِ
ونسيمٍ كأَن مَسْراه فى الأَر واح مَسْرى الأَرواح فى الأَجْساد
منظرٌ معجبٌ تحيَّةُ أَنْفٍ ريحُها ريحُ طيِّب الأَولادِ
تتداعى بها حمائمُ شتَّى كالبواكى وكالقِيان الشَّوادى
تتغنَّى القِرانُ منهن فى الأَيْـ ـكِ وتبكى الفِرادُ شجْوَ الفِرادِ

والقِرَان : المقترنات . وهن يتغنين فرحاً ، وتتغنَّى الفِراد المتوحدات حزنًا إذ ليس لهن قرين ، فهن يبكين الانفراد والوحدة والوحشة . وعلى نحو ما عُنِى الشعراء من أمثال ابن الرومى بوصف الطبيعة عُنوا بوصف الصيد . وأكثروا من الحديث عن آلاته من النَّبْل والسِّهام والنشَّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوهاق والجُلاهِق وهو ضرب من بندق الطين كانوا يرمون به الصيد . وبالمثل أكثروا من الحديث عن جوارحه وضواريه من الفهود والكلاب والصقور .

وكان شعر الزهد يشيع على كل لسان لما يصور من حياة الشظف التى كانت

تحياها الطبقات الدنيا فى الأمة . ولما يدعو إليه من تقوى الله فى السِّرِّ والعلن ، وكانت المساجد حافلة بالوعاظ والناس يتحلَّقون من حولهم مستمعين فى إنصات إلى مواعظهم التى تزهِّد فى متاع الحياة الزائل ، انتظاراً لما عند الله فى الآجل ، ومصيخين إلى ما يتحدثون به عن الموت ، وأن الحياة رحلة قصيرة ، تنتهى دائمًا به ، فكلٌّ من عليها فان ، ولن يبقى للإنسان إلا عمله ، فإما إلى الفردوس والنعيم ، وإما إلى النار والجحيم . وكانوا يتمثلون للناس فى أثناء مواعظهم بأشعار تحضُّهم على التقشف والتبتل والعبادة . وبلغ من اتساع موجة هذا الزهد أن رأينا الشعراء الذين لم يُعْرَفُوا بزهد ، وحتى من عاقروا الخمر واقترفوا الآثام يثوبون إلى رشدهم ، فينظمون فيه مقطوعات وقصائد ، وكأنما سكنت إليه نفوسهم أخيراً واطمأنَّت ، أو قل كأنما يريدون أن يتغنَّوا للعامة بمشاعرها وما كانت تُفْضى إليه من حياة التقشف والنسك والعبادة ، مبتهلة إلى ربها داعية ، تائبة مستغفرة ، وطوال الليالى تدعو وتتلو وتصلى وتبتهل مؤملة فى القبول ، معدَّة الزاد للحياة الآخرة ، واثقة بالمعاد ، مستزيدة ما استطاعت من العتاد . ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى هذا العصر كما رسمها شاعر الشعب ابن الرومى ، وفيها نرى الزاهد ساهراً طوال الليالى والأسحار ، يسبِّح بذكر الله ويثنى على آلائه ويتلو آيات كتابه ، وكلما مرت به آية وعيد ذرفت عيناه الدموع ضارعًا إلى ربه أن ينجيه من عذاب النار . وأن يغفر له خطيئاته وسيئاته ، ومن نعته له فيها قوله :

بات يدعو الواحدَ الصَّمَدا ... فى ظلام اللَّيل مُنْفردا
فى حَشَاه من مخافتهِ ... حُرُقاتٌ تَلْذع الكبدا
كلما مَرَّ الوَعِيدُ به ... سَحَّ دَمْعُ العَيْن فاطَّردا
قائلٌ : يا منتهى أملى ... نَجِّنِى مما أخاف غَدَا
وخطيئاتى التى سلفتْ ... لست أُحصى بعضها عددا
وَيْحَ عينى ساءَ ما نظرتْ ... وَيْحَ قلبى ساءَ ما اعتقدا

وكان من آثار اتساع الزهد حينئذ نمو التصوف الذى يقوم على محبة الله حبًّا يستأثر بقلب المحب وأهوائه وعواطفه ، ويُعَدّ ذو النون المصرى أباه الحقيقى ، إذ

فجرَّ فيه لأول مرة فكرة المعرفة الصوفية التى تستمد من القلوب ، وتأثر به سريعاً متصوفة بغداد . ولعل فى هذا إشارة كافية إلى أن المتصوفة فى العالم الإسلامى ، مهما أبعدوا فى الشرق أو فى الغرب ، كانوا يؤلفون فيما بينهم وحدة أو جماعة واحدة ، فما يقوله متصوف فى مصر سرعان ما يتناقله متصوفة بغداد وأقصى الشرق فى خراسان من مثل قول ذى النون فى مخاطبة الذات الإلهية :

أموت وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صِدْق حبِّك أوطارى
تحمَّل قلبِى فيك مالا أُبِثُّهُ وإن طال سقمى فيك أو طال إضْرَارِى

وكان هؤلاء المتصوفة يجلسون للناس فى المساجد ، وكثيراً ما كانوا يتحلَّقون حولهم ، وهم يعظونهم ، وينشدونهم ماحفظوا لذى النون وغيره من أئمتهم من أشعار تصور مبادئهم الصوفية ، كمبدأ الفناء عن الذات الإلهية ، بحيث تنمحى إرادة الإنسان فى إرادة ربه ، حتى يدرك مأموله وينال مطلوبه ، من رؤية الذات العلية ، وممن كان يذكر هذا المبدأ كثيراً فى مواعظه الجُنَيْد صوفىُّ بغداد المشهور ، وفيه يقول مناجياً ربه :

أَفْنَيْتَنى عن جميعى فكيف أَرْعَى المحـــلاَّ

وطبيعى أن يتضمن هذا المبدأ مبدأ الفناء المطلق فى الله تجردَ الإنسان من كل شهواته ورغباته بحيث لا يبقى فيه لأى شىء إدراك أو إحساس سوى ربه والانمحاء فيه انمحاءً تامًّا . وانبثق من هذا المبدأ مبدأ وحدة الشهود ، وأيضاً مبدأ وحدة الوجود الذى يذوب فيه المحب فى المحبوب ، على نحو ما نرى عند الحلاج فى قوله :

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنا بَدَنَا
فإذا أبصرتَنى أبْصَرْتَهُ وإذا أبصرتَه أبْصَرْتَنا

فقد فنى عن وجوده الإنسانى المنقطع غير الدائم ، واتحد مع ربه ووجوده الدائم المتصل ، أو قل كأنما انقطع الأول واتصل الثانى ، أو كأنما أصابه منه قبس أو سراج أشعل روحه ، حتى فنى عن جسده ، ولم يبق منه إلا روحه واللباب

الدائم ، فضاع الفانى أو قل انمحى وظل الباقى ، أو بعبارة أدق ظلت الصورة الإلهية وانطبعت فى نفسه ، مما جعله يظن أن الله يُرَى فيه . وأوغل فى هذا المبدأ حتى أحس معاصروه بأنه انحرف عن الطريق السَّوِىِّ وحُوكم ، وحُكم بِصَلْبه ، وتفرق أتباعه ، ولكن المتصوفة فى بغداد وإيران ظلوا يرددون أشعاره طويلا . وكان يعاصره الشِّبْلى . ولم يكن يقول بوحدة الوجود ولا وحدة الشهود ، وكان صوفيًّا كبيراً ، وكان له أتباع كثيرون . وكان لوعظه حلاوة وتأثير بعيد فى القلوب ، وكان يعظ الناس فى المسجد الجامع ببغداد ، وكان يحضر مجلسه يوميًّا مئات من مختلف الطبقات بين وزير وبائس فقير . وكان يكثر فى مواعظه من إنشاد الشعر ، يصور فيه محبته لربه وما يَصْلَىَ فيها من عذاب شديد ، وكيف يمضى أوقاته فى نيرانها المحرقة ، وعبثاً يستطيع إطفاءها بدموعه الغزيرة ، ومن قوله :

قبورُ الوَرَى تحت التراب وللهوى ... رجالٌ لهم تحت الثياب قبورُ
وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها ... لفاضتْ بحورٌ بعدهن بحورُ

وكان الناس يتداولون أشعار المتصوفة حينئذ ، ويرددونها فيما بينهم متخذين منها العظة والعبرة ، وكانت لهم فى نفوس العامة محبة كبيرة لرفضهم متاع الحياة الزائل ، وإقبالهم على ما عند الله من الثواب الآجل . ومما يدل بقوة على تعلق العامة بهم ما يُرْوَى من أن الجنيد صوفى بغداد الكبير حين توفى لسنة ٢٩٧ صَلَّى عليه ما لم يكد يُحْصَى من الخلق والناس ، حتى قيل إنه بلغ من صلوا عليه نحو ستين ألف إنسان ، وكان وراءهم عدد مماثل منتظر ، ليسير فى الجنازة ، وظل الناس نحو شهر يتعاقبون على زيارة قبره فى كل يوم . وظلت العامة تتناقل مواعظه وما كان ينشد فيها من أشعار طويلا .

وعلى نحو ما كان المتصوفة والزهاد يعبرون بأشعارهم للعامة عن هذا الغذاء الروحى كان كثير من شعرائها يشتركون مع جمهورها فى البؤس ويعبرون عنه بأشعار تصور حياتهم التعسة ، إذ كانت تنعم بالترف الطبقة الأرستقراطية من الشعب ، أما هم فكان يضنيهم الجوع وقلما وجدوا كساء سابغًا ، إذ لم تكن الطبقة المترفة تفكر فى إطعام جائع ولا فى كسوة عار ، إنما كانت تفكر فقط فى استمتاعها بالحياة . وقد مضى كثير من شعراء الشعب المحرومين يصورون

حياة الضنك التى يحيونها ، وفى مقدمتهم جحظة البرمكى الذى يصور دائمًا بؤس أمثاله من أبناء الشعب بمقارنة حياته بحياة المترفين فى الطعام وغير الطعام ، ومن قوله :

إنى رضيتُ من الرحيقِ بشـــراب تمرٍ كالعقيقِ
ورضيت من أكل السَّميـ ـذ بأكل مسودُّ الدقيق
ورضيت من سَعة الصحو ن بمنزلٍ ضنْكٍ وضيق

فهو يرضى بعيشه البائس ، يرضى بشراب التمر عن الخمر شراب المترفين لعصره ، وبالدقيق الأسود عن الدقيق الناعم الرافه ، وبالمنزل الضيق عن القصور ذات الأفنية الواسعة . ودائماً يذكر أنه ليس له خدم ولا غلمان ، يقول :

أحْمَدُ اللهَ لم أقل قطُّ يا بَدْ رُ ويا مُنْصفاً ويا كافورُ
لا ، ولا قلتُ أين أين الشواهيـ نُ ووزَّانُنا وأين البُذور
لا ، ولا قيل قد أتاك من الضَّيْـ عة بُرٌّ موفَّرٌ وشَـــعير
أنا خِلْوٌ من المماليك والأمْـ لاك جَلْدٌ على البَلا وصَبور
ليس إلا كُسَيْرَةٌ وقُدَيْحٌ وخُلَيْقٌ أتتْ عليه الدهور

والشواهين : أعمدة الموازين . فهو لا يملك رقيقاً وعبيداً ، وليس له ميزان يزن به حصيد الضياع من البر أو القمح والشعير ، إذ لا ضياع له ولا عقار ، إنه لا يملك شيئًا سوى البؤس والحرمان وكسرة من الخبز وقدح من الماء وثوب خلَقٌ بال لا يكاد يستر جسده ، ومن قوله :

الحمدُ للهِ ليس لى كاتبْ ولا على باب منزلى حاجب
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قيل جَحْظَةٌ راكبْ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قميصىَ الذاهب
وأجرةُ البَيْتِ فهْىَ مُقْرِحةٌ أجفانَ عَيْنى بالوابل السَّاكب

فهو لا ينعم بما ينعم به أصحاب الجاه والسلطان من كثرة الكتّاب والحجّاب، بل ليس له كاتب واحد ولا حاجب واحد . ليس له سوى البؤس والفقر المدقع ، بل ليس له دابة يركبها ، بل ليس له حمار يغدو عليه أو يروح . وليس له قميص ثان سوى قميصه ، يستطيع أن يلبسه حين يصبح الذى يكسوه بالياً . وإنه لتزعجه أجرة البيت مع مطلع كل شهر ، بل مع مطلع كل يوم ، إذ لا يملك شَرْوَى نَقير ، أو قل لا يملك ديناراً ولا درهماً ، وإنها لتقرح أجفانه بالبكاء والدموع ، إذ لا يستطيع سدادها ، ولا من مشفق عليه ولا رحيم . وضاع منه نعله فقال :

يا قـــومُ مَنْ لى بِنَعْـــلى أَو فى مصحَّـــف نَعْـــلِ

ويقصد بمصحف النعل بغلا يركبه . وسار البيت فى بغداد ، حتى رواه الصبيان فى الطرقات .

ومن أقوى الأدلة على أن الشعر فى هذا العصر كان يصدر عن روح الشعب وأن أفراده جميعاً كانت تشترك فيه أننا نجد بين شعرائه فى مدن العراق أميين يجيدون نظمه ، وكأنه كان غذاء عامًّا للشعب ، تسهم فيه جميع طبقاته وعناصره . وربما كان أهم هؤلاء الشعراء الأميين الخُبْزُ أُرْزِىّ البصرى وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان له دُكّان يخبز فيه خبز الأرز بالبصرة يتعيَّش منه ، ومن هنا جاء لقبه الذى اشتهر به . وفى أثناء خبزه الأرز كان ينشد أشعاره ، وأكثرها فى الغزل ، والناس يزدحمون عليه طلباً لغذاء معداتهم من الطعام، وغذاء أرواحهم من الشعر . وشعره جميعه فصيح غير ملحون ، مما يؤكد بوضوح ما قلناه مراراً وتكراراً من شعبية الشعر العربى وأنه كان على كل لسان ، ومن هنا كان مرآة ناصعة نقية لروح الشعب ، يعرضها بجميع انطباعاتها الشعبية . وطبيعى أن يتميز غزل الخبز أرزى — وهو من أبناء الشعب — بسهولة مفرطة ، وكأن لغته صورة للغة الشعبية فى عصره ، ولعل ذلك ما جعل شعره يدور بقوة على ألسنة الصبيان والشبان والشيوخ ، ويقول المسعودى المؤرخ البغدادى معاصره : « أكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره » . ومن طرائف غزله قوله :

رأَيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبِ فكانا هلالين عند النَّظَرْ
فلم أدْرِ من حَيْرتى فيهما هلالَ الدُّجَى من هلال البشَر
ولولا التورُّدُ فى الوَجْنَتينِ وما راعنى من سواد الشَّعَرْ
لكنت أظن الهلالَ الحبيبَ وكنت أظن الحبيبَ القمَرْ

وهو تصوير جيد ، أشاع فيه تلك الحيرة التى خالجته ، فلم يعد يتبين أين هلال الدجى وأين هلال البشر ، وظل يتأمل ويطيل النظر ، حتى لفته تورد الوجنتين وسواد الشعر ، فأدرك أين الحبيب وأين الهلال ، وإلا تمادت به حيرته . وكان خفيف الظل لطيف المعشر أنيس المحضر فكهاً ، فشُغف به أهل البصرة فى حياته ، يتجمعون كل مساء حول دكانه . وظلوا يذكرونه بعد مماته . ومن مداعباته قوله فى تصوير مائدة أحد أصدقائه وأنها تكاد تكون خالية من الأطعمة إلا ما مُدَّ عليها من الأوانى :

ولعمرى كان الخِوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِوانِ
وجِفانٍ مثل الحِياض ولكن ليس فيهن ما يُرَى بالعِيانِ
فإذا ما أدرتُ فيها بَنانى لم أجد ما أمسُّه بِبَنانِ
إننى ما ضغٌ على غَيْر شىءٍ غير صَكِّ الأَسنان بالأَسنانِ

ولعل من أقوى الأدلة أيضًا على أن الشعر فى هذا العصر كان يشترك فيه كثيرون من أفراد الشعب الأميين ، وكأنه لسان الجميع ، أننا نجد الجاحظ يؤلف رسالة يسميها رسالة صناعة القواد ، ملأها بأشعار على ألسنة العامة من حاكة الثياب والخبَّازين وأصحاب الحمامات والكنَّاسين والسقاة فى الحانات والطباخين والفراشين القائمين على المنازل . وكأنه ليست هناك طائفة من طوائف الشعب وعماله إلا وهى تنظم الشعر وتصور به خواطرها وخوالجها . ولكى تصبح الرسالة طرفة أدبية بديعة جعل الجاحظ كل شاعر من شعراء هذه الطوائف يستظهر فى شعره بعض الكلمات والألفاظ التى تدور على ألسنة جماعته ، من مثل قول حائك متغزلا :

أزْرارُ عينى فيك مـــوصولةٌ بِعُرْوة الدَّمْع على خَدِّى

obeikandl.com

وقول خبَّاز :

قد عجَن الهجرُ دقيقَ الهوَى   فى جَفْنة من خَشب الصَّدِّ
وأَقبل الهجر بِمِحْــرَاكِه   يَفْحص عن أَرْغِفةِ الوَجْدِ

وقول حمَّامى أو صاحب حمَّام :

أَوْقِدْ أَتونَ الوصل لى مرَّةً   منك بِزَنْبِيلٍ من الوُدِّ

وقول كنَّاس :

خَنَافِسُ الهِجْران أَثْكَلْننِى   نَوْمِى فولَّى مُعْرِضاً صَبْرِى

وقول ساق للخمر فى احدى الحانات :

شربتُ بكأْسٍ للهوى نبذةً معاً   ورقرقتُ خَمْرَ الوصل فى قَدَح الهَجْرِ

وقول طبَّاخ ذاكراً لونين من الحلوى :

ياشبيهَ « الفالوذ » فى حُمْرَة الخَـ   ـدِّ و« لَوْزِينَجَ » النفوسِ الظَّماءِ

وقول فرَّاش :

فرَشَ الهَجْرُ فى بيوت هموم   تحت رأْسى وِسادةَ البُرَحاءِ

والبرحاء : تباريح الحب وآلامه . وقد يظن ظان أن هذه الأبيات من صنع الجاحظ نفسه ، وحتى إن صح ذلك فإن الرسالة دليل على أنه ثبت عند الجاحظ ومعاصريه أن كل هذه الطوائف الشعبية كان ينبغ فيها شعراء مختلقون ، وطبيعى أن يمثلوا الانطباعات الشعبية لحرفهم وصناعاتهم ، وأن يتداول الناس أشعارهم وينشدوها على نحو ما أنشدها أو تمثَّلها الجاحظ فى رسالته .